

أوراق سياسية

- رقم ١٣ -

آب/أوغسطس ٢٠١٧

أهمية الجنوب السوري

معطيات الحرب الأهلية ومسارها

فريديريك هوف
فيصل عيتاني



أهمية الجنوب السوري

معطيات الحرب الأهلية ومسارها

أهمية جنوب سوريا لدى اللاعبين الأساسيين

لم تُثر الحرب الدائرة في الجنوب السوري انتباه الإعلام والمحللين بالقدر الذي أثارته تلك الدائرة في المناطق الشمالية من البلاد، علماً أن أهمية الصراع على الجنوب توازي أهمية الحرب في الشمال مع كل ما تشهده هذه الأخيرة من اجتياحات برية تركية وضربات جوية روسية وحملة عسكرية تقودها الولايات المتحدة ضدّ داعش. ومن المرجح أن تتسبب هي أيضاً بصراع دولي وتسفر عن تغييرات تطال الجغرافيا السياسية في المنطقة. وعلى الرغم من اتفاقات الهدنة التي تمّ التوصل إليها مؤخراً بوساطة الولايات المتحدة وروسيا والأردن، ما تزال هذه الاتفاقات بعيدة كل البعد عن وضع حدّ نهائي للعنف الدائر بين النظام والمعارضة في الجنوب.

يضمّ جنوب سوريا باديات محافظتي حمص ودمشق، إضافة إلى سهل حوران بما في ذلك محافظتي السويداء ودرعا وتلال القنيطرة جنوب غرب مدينة دمشق. وبالإضافة إلى دلالته الرمزية كونه شهد انطلاقة الثورة عام ٢٠١١، تكمن أهمية جنوب سوريا في قربه من إسرائيل والأردن والعاصمة السورية، ما يجعل منه مساحة جغرافية حيوية بالنسبة إلى أطراف الصراع الرئيسين.

يدرك كلّ من النظام السوري وإيران أنه إذا سيطرت قوى مناوئة لهما على الجنوب، سيشكّل متمردوه تهديداً دائماً لهما لا سيّما مع إمكانية استمالتهم من قبل الولايات المتحدة والأردن وحتى إسرائيل. يضاف إلى ذلك الأهمية التاريخية التي تحظى بها منطقة حوران عند النظام العلوي لجهة الدعم السني الذي توفره له. يقيم في

هذه المنطقة أغلبية دروز سوريا، وقد ساهموا كأقلية بإضفاء الشرعية على نظام يقدّم نفسه كعابر للطوائف وحامي الأقليات. لهذه الأسباب، إن خسارة النظام للجنوب تعني تخليه عن السيطرة على حدود البلاد واستدعاء التدخل الأجنبي وفقدان شريحة واسعة من أنصاره، إضافة إلى إبقاء العاصمة عرضة لضغط دائم من قبل المتمردين.

ويكتسب جنوب سوريا الأهمية نفسها عند فصائل الثورة ولكن لأسباب مختلفة. فعلى خلاف النظام الواحد والموحّد، لم تنجح الثورة السورية في التأسيس لكيان موحّد ومتماسك ومنظّم، لديه رؤية سياسية وطنية واضحة. إلى هذا، ولأن الإسلام الأصولي غير متجذر في الجنوب كما هي الحال في الشمال، سيطرت على الحراك الثوري فيه النزعة الريفية والانتماءات القبلية، إضافة إلى النزاعات المحلية الضيقة. بكلمات أخرى، يحظى الجنوب السوري بأهمية لمروحة واسعة من الجماعات المتمردة لأنه مسقط رأسهم والتزامهم به عميق جداً. من جهة أخرى، لا بدّ من الإشارة إلى الأهمية التي تكتسبها الحدود البرية مع الأردن بالنسبة إلى المتمردين كونها طريق الإمداد الرئيس الذي يتلقون عبره المساعدات من الولايات المتحدة، ما يجعل الجنوب حيوياً لبقائهم.

مما لا شكّ فيه أن إيران هي اللاعب الأجنبي الأكثر اهتماماً بجنوب سوريا لأسباب بعضها دفاعي وبعضها انتهازي. على غرار النظام، تؤمن طهران أن استمرار سيطرة المتمردين على الجنوب يشكّل تهديداً دائماً للحكومة في دمشق التي تتشبث بها لأسباب عدة، فهي حليفها العربي الوحيد والجسر الذي يربطها بحزب الله في لبنان وهي الجبهة النشطة مع إسرائيل ومعبر للتواصل مع شيعة لبنان وتؤمن لها عمقاً استراتيجياً في منطقة مليئة بالأعداء. ولحماية كل هذه المكتسبات، تستميت إيران للإبقاء على نظام صديق في سوريا. وفي حين لم يكن في البداية حتمياً أن نجاح الثورة السورية سيأتي بنظام معاد لإيران، اليوم وبعد العنف الذي

تعرضت له المعارضة على يد إيران والميليشيات الموالية لها، لا شكّ أن أي نظام بديل لنظام الأسد سيكون معادياً لإيران. هذا السبب وحده يجعل إيران تستميت في الدفاع عن الأسد عبر إبقاء الجنوب خارج سيطرة المتمردين.

ويدخل اهتمام حزب الله بالجنوب السوري في سياق الأسباب نفسها، ولكن يمكننا القول أن الضغوط الملقاة على عاتقه أكبر من تلك التي تُثقل كاهل إيران. أولوية حزب الله الاستراتيجية هي المحافظة على موقعه في لبنان عبر تأمين خطوط إمداده والإبقاء على استقلاليته العسكرية وسيطرته على الساحة السياسية الشيعية وحماية نفسه وقاعدته ضد إسرائيل والمتطرفين السنّة. إن تحقيق هذه الأهداف يستوجب وجود نظام صديق يمسك بمقاليد حكم سوريا، وفي حال سقوط هكذا نظام، يستوجب سيطرة الحزب على مناطق سورية حيوية. إن حماية دمشق تفرض تأمين خاصرتها الجنوبية، لكنّ حزب الله بحاجة ايضاً إلى تأمين الخاصرة الجبلية الغربية للعاصمة في القلمون (قاتل حزب الله بضراوة للسيطرة على هذه المنطقة ليجعل منها منطقة عازلة تقيه شرّ المتشددين السوريين السنّة). إن السياسة المتبعة لحماية العاصمة السورية تعتبر عاملاً حيوياً بالنسبة إلى عمق حزب الله الاستراتيجي.

دخل كل من إيران وحزب الله إلى سوريا للدفاع عن النظام السوري ومصالحهما الجيواستراتيجية الأساسية، لكن ظهرت مصالح أخرى رافقتها التزامات كما فرص جديدة. فالجنوب السوري يشكّل نافذة لفتح جبهة جديدة ضدّ إسرائيل في محافظة القنيطرة وجنوب غرب دمشق. وقد شنّت إسرائيل غارات جوية في هذه المناطق مستهدفة مواقع لحزب الله وإيران. تتصرف إسرائيل وفقاً لافتراض منطقي مآله أن حزب الله وإيران يستغلان الحرب الأهلية السورية لفتح جبهة جديدة ضدها من خلال مراقبة المنطقة والتأسيس لبنية تحتية عسكرية فيها. وعلى الرغم من أن هذه المسألة تُعدّ هدفاً مهماً لإيران وحزب الله، تبقى حماية أمن

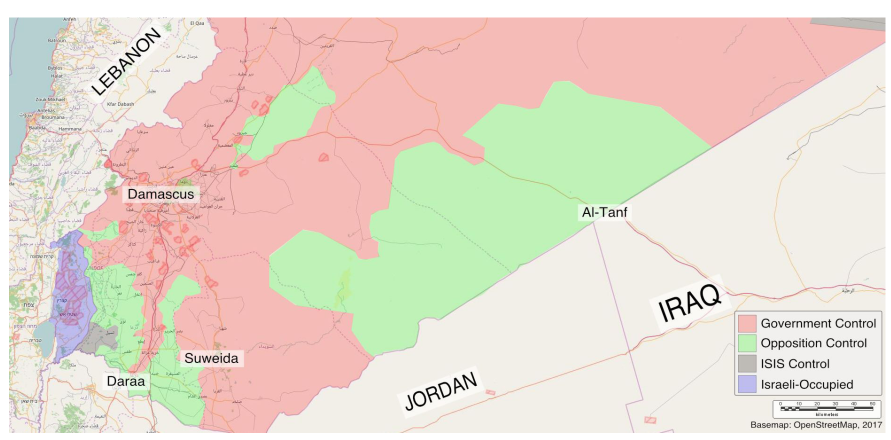
النظام أولوية مطلقة بالنسبة لهما.

تتفوق إسرائيل عسكرياً على نظام الأسد تفوقاً ساحقاً، إلا أن حزب الله يشكّل من لبنان تهديداً قوياً لإسرائيل، ولو أنه غير متكافئ، الأمر الذي منعها من مهاجمته حتى حين عمد إلى تعزيز ترسانته بصواريخ باليستية. بالإضافة إلى ذلك، من المرجح أن إسرائيل تدرس جميع التهديدات المحلية المحدودة في إطار مشهد يسوده موقف إيراني إقليمي عدواني وخطاب قوي مناهض لإسرائيل وقدرات يتمتع بها اللاعبون التقليديون الكبار. ولهذا، قد تقبل إسرائيل بوجود جماعات المتمردين في مناطق متاخمة لحدودها، ولكنّها لن تقبل مطلقاً بوجود قوات مدعومة من إيران تشكّل جزءا من خطر استراتيجي أكبر يهدّدها.

أما الأردن، فهو يستضيف مئات الآلاف من اللاجئين السوريين الذين قدموا من جنوب البلاد، ويواجه تحديات كبيرة في استيعابهم بسبب ظروفه الاقتصادية الصعبة وعدم جهوزيته. إلا أن مصير هؤلاء اللاجئين مرتبط بالوضع العسكري في جنوب سوريا، ومن مصلحة الأردن أن يحلّ السلام على طول حدوده الشمالية، أو على الأقل، أن تسود حال تخفيف التصعيد في المناطق السورية المتاخمة لها. لكنّ هوية الطرف الذي سيسيطر على الجنوب السوري تكتسب أهمية كبرى بالنسبة له، علماً أنه أياً يكن هذا الطرف سيكون الأردن بموضع من وقع بين المطرقة والسندان. فإذا سيطرت إيران على الجنوب السوري، ستواجه المملكة خطر وجود نظام طائفي شيعي متطرّف على حدودها مع فصائل مسلحة موالية له، وإذا سيطر المتطرفون السنّة سيسهل ذلك عليهم استهدافها. لذلك، يفضل الأردن على هذين السيناريويين أن يستعيد النظام السوري السيطرة على جنوب البلاد مع حصولها على ضمانات أمنية روسية.

وبين جميع اللاعبين الأجانب في سوريا، تبقى الولايات المتحدة الطرف الوحيد الذي ليس لديه مصالح حيوية على المحك في الجنوب السوري، إذ أنها تُعتبر من جهة اللاعب الأكثر

قوة ومن جهة أخرى الأقل تأثراً بمجرى الأحداث. فالولايات المتحدة لا تتشارك حدوداً مع سوريا ولا يوجد أي طرف في البلاد يمكن أن يشكّل تهديداً كارثياً على أمنها. ومع ذلك، ولأن الولايات المتحدة لديها خيارات متعددة والقليل من القيود، من الصعوبة بمكان معرفة حقيقة مصالحها أو توقع تصرفاتها. يضاف إلى ذلك عوامل أخرى أهمها وجود إدارة جديدة في البيت الأبيض منحت العمل العسكري حرية أكبر، وجاءت مواقفها العلنية من الأزمة السورية متقلبة حيناً ومتضاربة أحياناً أخرى. وبالرغم من ذلك، للولايات المتحدة مصالح في الجنوب السوري تحددها مصالح حلفائها المحليين، اي إسرائيل والأردن. وتشمل هذه المصالح منع "الدولة الإسلامية" (داعش) من اكتساب موطئ قدم لها في الجنوب، استخدام ميليشيات جنوبية محلية لمحاربة داعش، إضافة إلى الضغط على نظام الأسد للجم إيران ووكلائها. وتبقى أولوية هذه الأهداف بالنسبة للولايات المتحدة ومدى تجانسها وثباتها غير واضحين. ومن المهم الإشارة إلى أن أياً من هذه المصالح لا يفرض على الولايات المتحدة دعم المعارضة المسلحة ضد نظام الأسد.



Source: The Carter Center (2017)

التيارات الرئيسة

في أعقاب السيطرة على حلب في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٦، تمكّن النظام والقوى المدعومة من إيران من إعادة نشر قواتهم على جبهات أخرى. اشتعلت خطوط الجبهات الجنوبية التي كانت هادئة نسبياً مع تحرك القوات المؤيدة للنظام لإخماد التمرد، مهدّدة بذلك خطوط إمداده من الأردن. حشدت الميليشيات التابعة لإيران قواتها ضد المتمردين في البادية السورية وبالقرب من مدينة درعا في دلالة على أهمية المنطقة بالنسبة لها، لا سيّما أن المتمردنن كانوا ما يزالون يشكّلون تهديداً في محافظتي إدلب وحماه وداعش تسيطر على دير الزور.

وعلى الرغم من أن درعا مشمولة باتفاق إقامة أربع مناطق "تخفيف التصعيد" الذي أفضت إليه مفاوضات أستانا برعاية تركية–روسية، شهدت المدينة أكثر الأعمال عنفاً بين المناطق الأربع. ومن أحد أسباب ذلك كون اتفاق تخفيف التصعيد لا يشمل هيئة تحرير الشام المتطرّفة على الرغم من أن كوادرها مقربون من فصائل متمردة أخرى مدعومة من الولايات المتحدة والأردن. لم يكن من مصلحة هيئة تحرير الشام الالتزام باتفاق يستهدفها، لذلك تعمل أحياناً على خرقه عبر مهاجمة قوات النظام، الذي يردّ بدوره دون أن يميز بينها وبين الفصائل المتمردة الأخرى التي يشملها الاتفاق. إن هجوم النظام الأخير على درعا بدأ كحملة ضد هيئة تحرير الشام إلا أنه انتهى باستهداف الفصائل المتمردة التقليدية.

بعد ذلك، توصلت الولايات المتحدة وروسيا والأردن إلى وضع خطة لتخفيف التصعيد في الجنوب، ومع أنها صمدت في الأسابيع التالية، لم تكن تصبّ في مصلحة النظام لأنها تسمح للفصائل المعادية له والمدعومة من جهات أجنبية بالتمدّد باتجاه مناطق تُعتبر حيوية بالنسبة له. ويتميز النظام السوري بتمسكه

بسيادته ويحرص على عدم ترك أي جيوب في المناطق الحيوية يمكن لخصومه المحليين استغلالها مستقبلاً لتهديده. بالإضافة إلى ذلك، يشير مسؤولون أميركيون إلى أن الولايات المتحدة لا ترغب إطلاقاً في وجود وكيل مسلح لها يواجه النظام السوري لا في الجنوب، ولا في أي منطقة أخرى من البلاد. فالولايات المتحدة لديها هدف واحد لا تحيد عنه وهو محاربة المتطرفين وحماية حدود الأردن من تسلل الجهاديين إليه.

وفي حين تحرص إسرائيل على إبقاء إيران بعيداً عن حدودها، يعمل الأردن على عودة اللاجئين السوريين إلى بلادهم. كلاهما يسعى إلى إنشاء وكلاء لهما في الجنوب: فيما يعمل الأردن على التأسيس لقوة عربية محلية ضد داعش، تعمل إسرائيل حسبما ذكرت الأنباء، على إنشاء شركاء محليين يشكّلون منطقة عازلة على طول حدود الجولان–سوريا. مع عدم توفر معلومات دقيقة تثبت صحة المسعى الإسرائيلي من عدمه، فهو لو كان صحيحاً لانعكس تحسناً في الأداء العملاني الأمني للجماعات المتمردة السورية، وهذا ما لم يحصل إذ ما يزال هذا الأداء حتى الساعة ضعيفاً.

برزت القنيطرة في الجولان السوري كجبهة مهمة. استخدمها متمردو الجيش السوري الحر وهيئة تحرير الشام منذ العام ٢٠١٢ للدفع باتجاه دمشق. وفي مرحلة ما، أثار الدعم الأجنبي وخطوط إمداد الجماعات المتمردة من الأردن مخاوف النظام وحلفائه. سيطرت المعارضة لفترة معينة على جزء كبير من هذه المنطقة، ما دفع بالنظام إلى محاولة عكس هذا الإنجاز عبر شنّ هجمات شارك فيها مستشارون من الحرس الثوري الإيراني وحزب الله والميليشيات الشيعية العراقية والإيرانية واليمنية والأفغانية. ردت إسرائيل على هذا الأمر بإطلاق نار تحذيري وغارات جوية متفرقة ضد عدّة النظام وعديده. وحاولت من وراء الطاولة تزويد السكان السوريين المقيمين على خطوط التماس بالخدمات، في مسعى لخلق منطقة تتمتع بنفوذ فيها. وفي حال نجحت

القوات المدعومة من إيران بالسيطرة على القنيطرة، ستعمد طهران إلى فتح جبهة جديدة ضد إسرائيل على حدودها الشمالية الشرقية. ومن شأن أمر كهذا أن يمنح حزب الله فرصة لتحويل أو توسيع جهود "المقاومة" ضد إسرائيل من لبنان إلى سوريا.

شهد جنوب شرقي سوريا المواجهة الأولى بين إيران والولايات المتحدة على الأراضي السورية. بدأت بوادر هذا الصدام تظهر على معبر التنف الحدودي حيث تدعم الولايات المتحدة حلفاءها العرب ضد داعش، مع ما أظهرته إيران من استعداد للتقدم باتجاه المناطق التي تسيطر عليها داعش والتي يسعى النظام للاستيلاء عليها. تبدى خطر المواجهة هذه عندما استبقت القوات المدعومة من إيران أي محاولة للولايات المتحدة للتقدم باتجاه المناطق الواقعة شمال أو غرب التنف وسيطرت عليها. وعندما لم تحرك الولايات ساكناً إزاء هذا الأمر، اعتقد كلّ من إيران والنظام أن الطريق مفتوحة أمامهما للسيطرة على غربي سوريا دون أن يؤدي ذلك إلى مواجهة مع الولايات المتحدة، لا سيّما وأن هذه الأخيرة بدت غير مهتمة بأي تطور يحصل خارج نطاق مساحة الـ ٥٥ كيلوتراً التي حدّدتها كدائرة تُحظرّ فيها نشوب أي نزاعات. ونتيجة لذلك، تم التغلب على التحالف المدعوم من الولايات المتحدة دون أي معارك تذكر. ويتوقع المسؤولون الأميركيون أن يستمر وجود الولايات المتحدة في التنف لأمد طويل، علماً أنه سيقتصر على دائرة حظر النزاع التي تبلغ ٥٥ كليومتراً.

إن البيئة الجيوسياسية لم تتغير كثيراً خلال العام ٢٠١٧ على الرغم من انتخاب رئيس أميركي جديد، إذ ما تزال الولايات المتحدة تركز على محاربة داعش وتمتنع عن دعم الجماعات المتمردة ضد النظام، مفترضة حسن النية لدى روسيا ونفوذها الذي يسمح لها بالسيطرة على ممارسات إيران والنظام السوري. وقد اثبت فشل صمود أي اتفاق جدي لوقف إطلاق النار خطأ ذاك الافتراض الأميركي. وعلى الرغم من وجود أشخاص ضمن إدارة ترامب

يعتقدون بضرورة اعتماد مقاربة أكثر عدائية ضد إيران في سوريا، فإن المزاج العام الأميركي كما المؤسسة العسكرية يرفضان ذلك، ولاقى هذا الموقف استحسان الرئيس.

السيناريوات المستقبلية

سنستعرض ثلاثة سيناريوات مؤثرة ومعقولة، إلى جانب احتمالات حدوث كل منها وتداعياته الاستراتيجية. ولا بدّ من التنويه إلى أن هذه السيناريوات ليست حتمية ومن الممكن أن يرسي الوضع في الجنوب السوري على مشهد يمزج بينها.

السيناريو الأول: العودة إلى الوضع السابق

استعراض

في هذا السيناريو، تستعيد القوات الحكومية السيطرة على المناطق الجنوبية، واضعة حداً للتمرد فيها بوصفه تهديداً استراتيجياً. وينجح النظام في احتواء أو إجبار ما يكفي من السكان المحليين لفرض النظام وطاعة الدولة، وتحقيق الاستقرار في المنطقة. يبقى الوضع الأمني غير مستتب بشكل كامل لكنّه يسمح للاجئين في الأردن بالعودة تدريجياً، وتساهم المساعدات الدولية على إبقائهم داخل سوريا. تحتفظ إيران بنفوذ في سوريا، لكنّ حكومة الأسد هي من يقبض على مقاليد السلطة والقدرات لتأكيد استقلالها الاستراتيجي، تحقيق التوازن بين روسيا وإيران، إضافة إلى الهيمنة على الجنوب.

أرجحية هذا السيناريو

بالنظر إلى التوازن العسكري الحالي وموارد النظام وقدراته الضعيفة والدور الكبير للجهات الأجنبية الفاعلة في الصراع السوري، يبدو أن سيناريو "العودة إلى الوضع السابق" غير محتمل، لكنّه يبقى ممكناً. تراجعت كفاءة الحكومة السورية وقواتها المسلحة تراجعاً كبيراً بسبب سنوات من الاستنزاف وفقدان الموارد والقدرات، لكنّهما تمكنا من البقاء

كأكثر التنظيمات السورية العسكرية والبيروقراطية قدرة. إلى هذا، وفي ظلّ استمرار النظام بالتمتع بشعبية كبيرة وتخلي الولايات المتحدة صراحة عن تقديم أي دعم سرّي للمتمردين السوريين، بإمكاننا القول أن النظام السوري يحتل المرتبة الأولى بين الأطراف السورية المتنازعة كأقوى جهة بين متساوين. من شأن هذا الأمر أن يمكّن النظام من السيطرة على الفصائل المحلية الأخرى نظراً للدعم الأجنبي الثابت الذي يتلقاه والمقاومة المحدودة لخصومه الخارجيين.

تداعيات حصول هذا السيناريو

إن أوجه الضعف الكامنة في النظام وفقدانه للشعبية بين الكثيرين في جنوب سوريا، ستؤدي في المدى البعيد إلى حال من عدم الاستقرار. ومع ذلك، فإن هذا السيناريو يتمتع بدعم أو قبول الجهات الفاعلة الأجنبية الرئيسة. فعلى الرغم من أنه لن يسمح لإيران وحزب الله بفتح جبهة جديدة ضد إسرائيل، فهما يفضلان حتماً أن يكون النظام هو المسيطر على أي بديل آخر. من جهتها، سترحب روسيا بهذا السيناريو لأنه يحقق أحد أهم أهدافها وهو ترسيخ سلطة الحكومة المركزية في سوريا. أما الأردن، فسبب خلافه الأساسي مع النظام السوري هو تحالفه مع إيران، إلا أن عمر هذا التحالف سابق لاندلاع الأزمة السورية وكانت المملكة تتعايش معه. إن همّ عمان الأساس اليوم هو عودة اللاجئين السوريين إلى بلادهم وسترحب بأي ترتيب يؤمن ذلك. بالنسبة إلى إسرائيل، فهي دون أدنى شك تفضل هذا السيناريو على وقوع الجنوب السوري تحت سيطرة إيران وحزب الله، وينسحب ذلك أيضاً على الولايات المتحدة. وبالخلاصة، وعلى الرغم من أن سيناريو ”العودة إلى الوضع السابق“ لا يشكّل الحلّ الأمثل لأي من اللاعبين الخارجيين، يبقى حلاً مقبولاً لديهم جميعاً. أما إذا ما كان السوريون في الجنوب يقبلون به، فهذا موضوع آخر قد يدفع باتجاه استمرار العنف لأمد طويل.

السيناريو الثاني: السيطرة الإيرانية

استعراض

في هذا السيناريو، تميل دفة الحرب باتجاه خسارة المتمردين بسبب قوة مشاركة المستشارين الإيرانيين وحزب الله والمليشيات الشيعية الأخرى العراقية والباكستانية والأفغانية. تتمكن هذه القوات من دحر المتمردين وتقطع عنهم خطوط الإمداد من الأردن وتجد نفسها في ظلّ ضعف قوات النظام بموقع المسيطر على الجنوب السوري. يحافظ النظام على بعض من نفوذه السياسي، لكنّ اعتماده على التحالف الذي تقوده إيران يضع بيد هذا الأخير إدارة الشؤون الاستراتيجية. يبدأ حزب الله بتحيّن الفرص لإنشاء بنى تحتية عسكرية فاعلة بالقرب من الحدود الإسرائيلية السورية، واضعاً بعين الاعتبار خطر قيام إسرائيل بأي عمل عسكري. تضطر إسرائيل إلى وضع استراتيجية تقوم على الاستباق أو الردع أو الاستنزاف، أو على الثلاثة معاً.

أرجحية هذا السيناريو

إن احتمال حدوث هذا السيناريو أكبر من احتمال حدوث سيناريو "العودة إلى الوضع السابق". فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار سياسة إيران الناجحة في خلق وكلاء لها وقدراتها الكبيرة وعمق انخراطها العسكري في سوريا، يبدو أنها متجهة للعب دور أكبر وربما مهيمن في إدارة شؤون سوريا الاستراتيجية. في ظلّ هذا السيناريو، تسيطر إيران على هذه المنطقة الحرجة وعلى جميع الطرق المؤدية إلى دمشق، كما تسيطر على خطوط الإمداد البري بين العراق ولبنان وعلى الحدود الجنوبية مع إسرائيل. يكون كلّ من إيران وحزب الله هما محركا خيوط العمل العسكري الذي أنقذ الأسد وليس روسيا. وسبق لإيران أن أظهرت انتهازية استراتيجية في استغلال الظروف للتأسيس لنفوذ لها في مناطق جغرافية مهمة. ومن الممكن أن يعمدا هي وحزب الله

على إنشاء بنية أمنية في الجنوب السوري كجزء من استراتيجية أكبر لمحاربة إسرائيل أو ببساطة، ليحافظا على مكاسب الحرب التي حققاها. ومع ضعف المتمردين في أنحاء أخرى من سوريا وهزيمة داعش في العراق، سيكون لدى إيران إمكانات وعديد أكبر لتدفع بهم باتجاه الجنوب السوري وترسخ مكاسبها في هذه المنطقة المهمة من سوريا.

تداعيات حصول هذا السيناريو

إن حصول هذا السيناريو سيؤدي إلى زعزعة الاستقرار محلياً وإلى إخلال التوازن الجيوسياسي الإقليمي. فعلى المدى الطويل، تبقى حظوظ حصول أي تحالف يتألف من إيران والميليشيات الشيعية على دعم أو قبول شعبي أقل من حظوظ النظام. إلى هذا، ستشهد هذه المنطقة أعمال عنف وقمع تقوم بها على الأرجح الميليشيات الشعية، في وقت ينشغل فيه كل من إيران وحزب الله بقضايا استراتيجية أهم. التداعي الأخطر سيكون على العلاقات الإيرانية الإسرائيلية، علماً أنه من الصعب توقع شكل الصراع الجديد وشدته. عاشت إسرائيل مدة ١١ عاماً في سلام نسبي مع حشد حزب الله العسكري على حدودها مع لبنان، وهي لن تعمد بالضرورة إلى استعمال العنف للتصدي لمحاولات إيران تكرار التجربة اللبنانية في الجنوب السوري. وفي حين أن إسرائيل وحزب الله أمضيا عقوداً لتحديد 'قواعد اللعبة' في لبنان وأدرك كلّ منهما الخطوط الحمر عند الآخر، لن ينسحب هذا الأمر على الجنوب السوري إذ أن إمكانية وقوع المحظور من سوء تقدير أو تصعيد غير مقصود على جبهة جديدة في سوريا أعلى بكثير. إلى هذا، من الممكن لإسرائيل أن تعمد إلى رسم خطوط حمر في بلد مجاور آخر تسيطر عليه إيران، ولذلك شنّت هجمات استبقاية ضد إيران وحزب الله أكثر قسوة مما فعلته في لبنان. ومن الممكن أيضاً أن تعمل إسرائيل بشكّل حثيث على إنشاء وكلاء لها بين السكان

السنّة والدروز لردع إيران ووكلائها ومواجهتهم، إضافة إلى القيام بأعمال عدائية ضد إيران وحلفائها.

إن سيناريو ‘الهيمنة الإيرانية’ سيكون دون شك غير مستقر، إلا أنه قد يكون دائماً ويحمل معه خطر التدخل الأميركي لمصلحة إسرائيل واستهداف إيران لمصالح الولايات المتحدة ووقوع حرب بالوكالة بين الجماعات المدعومة من كلّ من إيران وإسرائيل، و/أو تصعيد بين إسرائيل وحزب الله في لبنان. وبالفعل، إن سيطرة إيران على جنوب شرقي سوريا خصوصاً، سيضعها على قاب قوسين من القوات الأميركية وحلفائها العرب والأكراد. وفي حين أن الولايات المتحدة تشعر بإلحاح أقلّ من إسرائيل للردّ على خطر ثانوي في منطقة جغرافية غير حيوية بالنسبة إليها، فإن أحداث التنف تثبت وجود احتمال كبير لوقوع صدام أميركي إيراني (علماً أن الولايات المتحدة امتنعت عن خوض أي مواجهة هناك).

السيناريو الثالث: منطقة تحت سيطرة المتمردين

استعراض

في هذا السيناريو، تنجح مختلف جماعات المتمردين وبينها عناصر من الجبهة الجنوبية التي تدعمها الولايات المتحدة والأردن في مقاومة النظام وتدعيم الأراضي المتاخمة لمنطقتهم. يستولي المتمردون على مواقع بارزة للنظام في مرتفعات الجولان ومدينة درعا ويقطعون خطوط الإمداد عن محافظة السويداء. يتوصل المتمردون إلى اتفاق مع السكان الدروز على حياد المنطقة، وينجحون في هزيمة جيش خالد بن الوليد الموالي لداعش في جنوب غربي درعا. ويتمكنون تالياً من طرد كل الأطراف المعادية لهم بدءا من مرتفعات الجولان غرباً وصولاً إلى التنف شرقاً. تؤمن لهم الولايات المتحدة وربما إسرائيل امدادات ضخمة لتنفيذ عملياتهم وتوطيد إقامة ‘منطقة عازلة’ على الحدود بهدف ردع أي تجاوزات إيرانية.

أرجحية حصول هذا السيناريو

من الصعوبة بمكان تقدير احتمال حدوث هذا السيناريو بدقة، لأنه يعتمد اعتماداً كبيراً على أولويات الولايات المتحدة والتزاماتها والتي ما تزال حتى اليوم غير واضحة. ومع ذلك، تتراجع أرجحية حصوله يوماً بعد يوم. يعتمد المتمردون في الجنوب على الدعم المادي الذي تقدمه لهم الولايات المتحدة، كما يعتمدون في بعض الأحيان على حمايتها المباشرة، وبات جلياً أن واشنطن تراجعت تراجعاً كبيراً في تنفيذ كلا التدبيرين. وإذا لم يحصلوا على دعم أكبر، من المحتمل أن يفقدوا الأرض التي يسيطرون عليها حالياً على يد النظام أو الميليشيات المدعومة من إيران، الأمر الذي من شأنه استبعاد حصول هذا السيناريو. هاجم الرئيس ترامب في خطابه إيران وشدّد على أهمية حلفاء الولايات المتحدة كإسرائيل والأردن. وعلى الرغم من وجود أشخاص في البيت الأبيض يدفعون باتجاه اعتماد موقف أكثر عدائية من إيران، تنحى القيادة المركزية في البنتاغون إلى عدم المخاطرة والتركيز فقط على محاربة داعش. لا تملك كلّ من إسرائيل والأردن لا الإرادة ولا الإمكانات لحماية منطقة يسيطر عليها المتمردون في ظلّ معركة مفتوحة ضد إيران وحزب الله والنظام السوري. وعليه، فإن مصير المتمردين في الجنوب يرتبط بالسياسة الأميركية التي انتقلت من تقديم مساندة متواضعة إلى تخلي واضح عن مهمتها السرية في دعم القوات المتمردة. وعلى الرغم من ضآلة احتمال حدوث سيناريو 'سيطرة المتمردين'، تبقى تداعياته في حال حصوله كبيرة جداً.

تداعيات حصول هذا السيناريو

يشكّل هذا السيناريو الالتفافة الأكثر دراماتيكية عن الوضع الذي كان سائداً قبل الحرب، ويضع منطقة حيوية من سوريا بين أيدي القوات المدعومة من الغرب والتي من الممكن أن تتعايش مع إسرائيل. وعلى الرغم من صعوبة احتمال تحوّل هذه المنطقة إلى دولة منيعة ومتماسكة قادرة على عكس قوتها، فإن سيطرة المتمردين

على الجنوب السوري ستشكّل شوكة في خاصرة النظام وخطراً على إيران بسبب عدائهم لهما واصطفافهم إلى جانب قوى غربية مناوئة. وسيرى كل من إيران والنظام هكذا منطقة، وعن حق، كنقطة انطلاق محتملة لهجوم مدعوم من الولايات المتحدة على ما تبقى لهما من أراض، كما سيعتبرون المتمردين أنفسهم أنهم مجرد وكلاء لأعداء خارجيين. سيترك هذا السيناريو النظام وإيران وروسيا في حال أسوء من إسرائيل والولايات المتحدة والمعارضة السورية، التي سيكون وضعها أفضل مما كانت عليه عند انطلاقها. ولكن ما لم يؤمن المتمردون الحماية من الهجمات الجوية من خلال التدخل الأجنبي أو الحصول على أسلحة مضادة للطائرات، فسيكونون عرضة للقصف المستمر على يد النظام (وربما روسيا) ولن يكون بمقدورهم الحكم بشكّل فعّال. ويسلط هذا الأمر الضوء على أهمية نوايا الولايات المتحدة والتزامها بهذا السيناريو، وبشكّل أقل إسرائيل.

الخلاصة والتذييل

في ٩ تموز/يوليو ٢٠١٧، دخلت الهدنة في الجنوب السوري حيز التنفيذ بعد أن تمّ التوصّل إليها بوساطة الولايات المتحدة وروسيا والأردن. وبعد ذلك بوقت قصير، أعلنت الولايات المتحدة عن إنهاء دعمها للقوات المتمردة المناهضة للأسد. وعلى الرغم من تراجع القتال في الوقت الراهن، من السابق لأوانه معرفة ما إذا ما كانت ستؤدي إلى وقف للأعمال العدائية على المدى الطويل، وبشكّل أقل إذا ما كانت ستساهم في التوصل إلى تسوية سياسية شاملة في سوريا.

ومع أنها ليست طرفاً في اتفاق وقف إطلاق النار، من الواضح أن إسرائيل تراقب مجرى الأمور باهتمام كبير. وبالفعل، إذا ما جمعنا بين المخاوف الأردنية من موجة جديدة من اللجوء الجماعي من منطقة درعا الكبرى والرفض الإسرائيلي المطلق لقيام جبهة جديدة لحزب الله وإيران على حدودها، فمن مصلحة الولايات المتحدة مواصلة الضغط

من أجل تثبيت وقف لإطلاق النار من شأنه الحؤول دون حدوث هذه الاحتمالات .

قيل أن روسيا كانت في البداية مترددة في الموافقة على وقف لاطلاق النار يتم التوصل إليه على أي أساس آخر غير محادثات السلام فى استانا التى تهيمن عليها واستبعدت عنها الولايات المتحدة بشكّل فعّال. ولكن وعلى ما يبدو، توصلت روسيا إلى قناعة مفادها أن معارضة وقف لإطلاق النار يعزز المصالح الأردنية والإسرائيلية على حد سواء، لا تستحق التكلفة الديبلوماسية التي ستدفعها .

ربما تكون روسيا مقتنعة بأن استغلال إيران والنظام للمكاسب الأميركية ضد داعش في شرق سوريا أهم بكثير من القتال في جنوبها. ومن شأن ذلك أن يزيد من بريق وقف إطلاق النار، خصوصاً وأنه يبقي الباب مفتوحاً أمام شنّ هجمات على هيئة تحرير الشام، مع إمكانية استخدام ذلك كغطاء للهجوم على المعارضة.

إن مصير جنوب سوريا سيكون مؤشراً موثوقاً للنوايا الأميركية والروسية وقدراتهما. تسعى روسيا إلى الحفاظ على نظام الأسد، ولكنّها في الوقت عينه تجد أيضا طريقة لإضعاف المعارضة وإعادتها طوعاً إلى حظيرة النظام. إن تثبيت وقف إطلاق النار في الجنوب الذي يسمح بمواصلة محادثات جنيف التي وافقت عليها الولايات المتحدة، سيكون مقياساً موثوقاً لنوايا روسيا ونفوذها.

من جانبها، لم تعمد إدارة ترامب حتى الآن إلى الإعلان عن هدف واضح للولايات المتحدة من الصراع السوري أو وضع استراتيجية محددة للتعاطي مع هذا الصراع. ويبدو أن جلّ ما يهمها هو إعلان النصر على داعش، متجاهلة مصالح الولايات المتحدة الطويلة الأمد ونفوذها في سوريا. ولا ريب أن هذا النهج سيسهل على إيران وحزب الله المضي قدماً في خططهما الهادفة إلى تعميق وجودهما الاستراتيجي في البلاد لأجل طويل. ولسوء حظ الولايات المتحدة، من المرجّح أن يهدّد هذا

الأمر حلفاءها الرئيسين، ويمنع أي مصالحة جدية بين السوريين، ويضع الأسس لمزيد من العنف السياسي مستقبلاً في سوريا.

باختصار، يشكّل جنوب سوريا بالون اختبار لتوازن النوايا والقدرات في سوريا. هل تستطيع روسيا كبح جماح النظام وإيران ومنعهما من محاولة استعادة المنطقة؟ وهل ستضطلع الولايات المتحدة بدور فعّال لتحقيق هذه الغاية؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة ستحدد مصير سوريا في المستقبل القريب.

فريدريك هوف

فريدريك هوف هو مدير مركز رفيق الحريري للشرق الأوسط في المجلس الأطلسي في واشنطن العاصمة. عام ٢٠١٢، شغل هوف منصب المستشار الخاص لوزيرة الخارجية الأميركية هيلاري كلينتون لشؤون انتقال السلطة في سوريا.

فيصل عيتاني

فيصل عيتاني هو من كبار الزملاء المقيمين في مركز رفيق الحريري للشرق الأوسط في المجلس الأطلسي في واشنطن العاصمة. تركز أبحاثه في المقام الأول على الصراع السوري وأثره الإقليمي.